الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: النهـــــار
التاريخ : ١٩٧١/٥/٢٣

السادات سيّدا

□□ « مصر تحتـــاج في اوقاتها الحرجـــة المصيرية الى قادة يستمدون قوتهم من الشعب لا من الجماهير . فالجماهير ليست الا لحظة من الشعب . واذا اخطأت الجماهير ، فان الشعب لا يخطيء بل يصيب » .

هذا الكلام قاله المستشرق الفرنسي جـــاك بيرك احـــد اكثـــر الاوروبيين اهتمامـــا بمصر وتاريخها . وهو كلام لا يبدو بعيدا عن المرحلة الحالية « الحرجة والمصيرية » التي تمر فيها مصر على الصعيدين الداخلي والخارجي .

وقـــد بدا ، من خـــلال ظواهر الاحـــداث والتطورات في مصر ، ومن خلال كلام الرئيس أنور الســـادات بعـــد اكتشافه « المقـــاولة الانقلابية » ، وتأكيده اكثر من مرة على انه « سيفرم » من يحاول شق الجبهة الوطنيـــة الداخلية وزعزعتها في وقت « تستعد قواتنـــا على القناة للمعركة » ، بدا ان الذين سقطوا — من علي صبري الى شعراوي جمعة الى سامي شرف الى الفريق اول محمد فوزي الى الآخرين من رجال الاتحاد الاشتراكي ومجلس الامة — هم « الجماهير » التي اخطأت ، وان السادات هو « الشعب » الذي أصاب .

والسادات ، الذي بدا انه يستمد قوته من « الشعب » لا من « الجماهير » ، لم يحقق فقط للمصريين ما كانوا يتمنونه — على حد قول المعلقين الصحافيين في القاهرة — بتسديده الضربة القاضية الى « المتآمرين » ، بل حقق نبوءة قديمة لمجلة « تايم » الاميركية .

في أيلول ١٩٥٢ ، اي بعد شهرين على الثورة المصرية ، قالت مجلة « تايم » وهي تكشف أسرار الثورة ، ان الرجل القوي في مصر ليس محمد نجيب ، كما يبدو للوهلة الاولى ، بل ان وراء نجيب رجلين قويين : أنور السادات وراشد مهنا (احد الاوصياء على الامير احمد فؤاد الذي تنازل له الملك فاروق عن العرش) .

لكن المجلة الاميركية اخطأت الحسابات ، آنذاك ، ولم تكتشف ، فعلا ، حقيقة الرجل القوي . فالرجل القوي كان هو نفسه الذي خصصت له « تايم » خمس مرات غلافها ، طول فترة حكمه ، حتى اصبح جمال عبد الناصر أكثر الحكام في العالم الذين احتلوا غلاف المجلة الاميركية .

وانتظرت نبوءة المجلة الاميركية ١٨ عاما حتى تتحول الى حقيقة وحتى يصبح السادات الرجل القوي . وربما من باب الصدف فقط ان السادات ظهر على غلاف « التايم » في الوقت الذي طوّح بالرؤوس الكبيرة « المتآمرة » والتي كانت تشكل الاسس الرئيسية في النظام الناصري .

ولم تخف المجلة الاميركية اعجابها بالرئيس المصري لانه « سيصبح خلال الاسابيع او الاشهر المقبلة احد ابرز الاشخاص الذين على الولايات المتحدة التعامل معهم في محاولة لاحتواء النزاع العربي — الاسرائيلي ومنعه من أن يتحول الى مجابهة أميركية — سوفياتية » . وكان ابرز ما لاحظته المجلة في شخصية السادات انه « مسلم تقي » وانه يلعب البينغ بونغ بمهارة .

هل اخطأت « التايم » هذه المرة في تقديرها حين اعتبرت ان الرجل الذي حط عليه قدر مصر يريد التسوية السلمية للنزاع ؟ هل السادات — اي « الشعب » — هو رجل السلام ، والذين سقطوا — اي « الجماهير » — هم رجال الحرب ؟

بعد زيارة بودغورني

الواقع ان السادات كان يعمل منذ تسلمه رئاسة الجمهورية ، بالتعاون مع الفريق الذي طوّح به قبل ايام ، من اجل التسوية السلمية التي اطلق عليها اسم « النضال السياسي » . بل بدا منذ الايام الاولى التي تبعت وفاة عبد الناصر ان الاتحاد السوفياتي – وهؤلاء الذين سقطوا الآن محسوبون عليه – يريد اكثر من اي وقت مضى استمرار المساعي لتسوية النزاع سلميا .

ويتضح ذلك اكثر في العودة الى الفترة الاولى من حكم السادات والاشهر الثلاثة الاولى من ١٩٧١ .

في نهاية كانون الاول ١٩٧٠ بدأ السادات يلقي سلسلة من الخطب ، في مناسبات مختلفة ، دارت كلها حول المعركة الآتية والحرب . واستمرت هذه السلسلة حتى ١١ كانون الثاني ١٩٧١ ، وقال عنها احد المراقبين المطلعين في القاهرة « انها عبأت الراي العام المصري للحرب بشكل لا مثيل له ، الى درجة ان التعبئة فاقت بكثير التعبئة التي جرت قبل ايام من ٥ حزيران ١٩٦٧ » .

لكن لهجة السادات تبدلت بعد ١١ كانون الثاني .

وحدث ان زار الرئيس السوفياتي نيكولاي بودغورني مصر بين ١٣ كانون الثاني و١٩ منه للمشاركة في احتفالات انتهاء بناء سد سوان . وبعد هذه الزيارة ، اختفت التهديدات بالحرب من تصريحات السادات والمسؤولين المصريين ، وحلت محلها لهجة « اكثر هدوءا واعتدالا » .

لكن الذي استرعى انتباه المراقبين بصورة خاصة هو البيان المشترك المصري – السوفياتي الذي صدر بعد انتهاء محادثات بودغورني في القاهرة . فقد اكثر هذا البيان بصورة خاصة ومطولة على التعاون الاقتصادي بين البلدين وعلى مشروعات التنمية وكهربة الريف المصري واستصلاح الاراضي التي

سيساهم فيها السوفيات . وعكس هذا البيان بوضوح اهتمام موسكو والقاهرة المشترك بتطوير المجتمع المصري ، وهو اهتمام لا يتفق الا مع وجود مساع جدية وفعلية لتسوية النزاع سلميا .

بعد البيان المشترك كانت الخطوة الثانية المهمة والمفاجئة ، خطاب السادات مساء ٤ شباط . فقد اعلن السادات في هذا الخطاب قبول مصر تمديد وقف اطلاق النار فترة ٣٠ يوما تنتهي في ٧ آذار ، في وقت لم يكن احد يتوقع منه أن يعلن ذلك . ودعا ، في خطابه ايضا ، الى انسحاب القوات الاسرائيلية جزئيا من الضفة الشرقية لقناة السويس ، تمهيدا لتطهير مجرى القناة واعادة فتحها امام الملاحة الدولية .

مع خطاب السادات بدأ شهر حاسم امتلأ بتصريحات ومواقف وخطوات لم يعرفها تاريخ النزاع العربي — الاسرائيلي من قبل . وظهر خلال هذا الشهر ، بوضوح ، اهتمام واشنطن وموسكو بتحقيق خطوات فعلية ورئيسية لتسوية النزاع بين مصر واسرائيل . وكان خطاب السادات في ٤ شباط مهما في هذا المجال ، اذ كانت المرة الاولى التي يدعو فيها رئيس مصري الى تسوية منفردة بين بلده واسرائيل ، وان كانت هذه التسوية ، كما قال المصريون ، خطوة في اتجاه التسوية الشاملة .

وبعد اسبوع على خطاب السادات قدم الدكتور غونار يارينغ الى مصر واسرائيل مذكرتين لتحقيق اتفاق بينهما . واستثنى يارينغ ، للمرة الاولى منذ بدء مساعيه ، الاردن ، ولم يرسل اليه اي مذكرة .

تحول في اتجاه الداخل

في ٢٠ شباط ، وللمرة الاولى منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، يصدر في القاهرة بيان مشترك عن زيارة وفد رسمي لمصر ، لا يتضمن دعوة الى « ازالة آثار العدوان » والى « تحرير كل الاراضي العربية المحتلة » . ففي

ذلك اليوم صدر البيان المصري ــ اليوغوسلافي عن محادثات الرئيس تيتو في القاهرة . وبدلا من أن يتحدث البيان عن تحرير كل الاراضي العربية المحتلة ، تحدث عن « جهود الجمهورية العربية المتحدة لاستعادة سيادتها على الاراضي التي انتزعت منها بالقوة » .

وبعد انتهاء زيارته للقاهرة أعلن تيتو « ان القادة المصريين لا ينكرون على اسرائيل الحق في الوجود . انهم مستعدون لتسوية مسألة العلاقات مع اسرائيل ، بحيث تستطيع كل الدول في تلك المنطقة ان تكون حرة وان يضمن وجودها وتطورها . وهذا ما يترتب على كل تقدمي وكل شخص يفكر بواقعية ، ان يوافق عليه » .

في أول آذار ، زار السادات موسكو سرا بناء على طلب زعماء الكرملين ، وعاد الى القاهرة ليلقي خطابه في ٧ آذار ، يوم انتهاء فترة تمديد وقف اطلاق النار .

الشيء الاساسي والبارز في خطاب السادات ذلك اليوم هو انه لم يهاجم الولايات المتحدة اطلاقا ، ولم يحمل على دعمها لاسرائيل ومساندتها اياها ، انما طلب منها ان تستخدم هذا الدعم كوسيلة ضغط من أجل أن تنسحب اسرائيل من الاراضي المحتلة . ودعا الولايات المتحدة الى ان تؤدي واجبها وتفي بما تعهدت به ، وهو معارضة مبدأ الاستيلاء على الاراضي بالقوة . وبدا ، من خلال هذا الخطاب ، ان الجو اصبح ايجابيا بين واشنطن والقاهرة . وقد ابلغ السادات نيكسون في احدى رسائله اليه استعداد مصر لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة ، اذا مارست ضغطا كافيا على اسرائيل .

في مقابل ذلك ، عبر علي صبري عن راي « الفريق الآخر » في حديث استثنائي نشرته « الاهرام » في ٦ آذار . وكان ابرز ما في حديثه تركيزه على السلام وعلى البناء والتنمية الاقتصادية ودعوته الى ضرورة « بدء التخطيط من الآن » لمرحلة السلام . وقال ايضا :

« ان علاقاتنا مع موسكو ستستمر بعد المعركة في سبيل التنمية الصناعية والتكنولوجية للمجتمع . وفي هذا المجال فلن نستطيع الاعتماد اساسا الا على الخبرات السوفياتية ».

ان الذين سقطوا كانوا رجال سلام ، والذي بقي هو رجل سلام . و« الجماهير » التقت – عند هذه القضية المصرية – مع «الشعب».

الصراع ، اذا ، كان صراعا على السلطة : من يكون السيد الاول ومن يكون له الادوار الثانوية

على اي حال ، فان استفراد السادات بالسلطة وابعاده أركان النظام الناصري وتعيينه رجاله في مراكز الدولة والحكم ، يعني أن السادات أصبح هو السيد ، ويعني أنه اصبح يواجه وحده قضية الاحتلال الاجنبي لبلاده . وهو أمر لم يفعله عبد الناصر ، مثلا ، في مطلع الثورة .

فقد سعى عبد الناصر قبل كل شيء الى جلاء القوات الاجنبية (البريطانية) عن مصر وعن قناة السويس ، ووقع مع البريطانيين معاهدة الجلاء في ٢٤ تشرين الاول ١٩٥٤ . وبعد اسبوعين على توقيع هذه المعاهدة وبدء انسحاب القوات البريطانية ، اقيل محمد نجيب وتسلم عبد الناصر السلطة .

اما السادات فقد تسلم السلطة قبل بدء انسحاب الاسرائيليين . هل هذا يعني أنه تلقى ضمانات قوية من الولايات المتحدة – التي تشير المعلومات الى انها تلعب الآن الدور الاول – بان قناة السويس ستفتح وأن القوات الاسرائيلية ستنسحب من الضفة الشرقية جزئيا وتتيح للمصريين عبور القناة ؟ □ .